الرمز القرآني وأثره في الشعر الحديث

المدرس
رائدة مهدي جابر
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية

الرمز القرآني وأثره في الشعر الحديث

المدرس
رائدة مهدي جابر
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية

المقدمة:

حظي القرآن الكريم بنصيب وافر من الدراسات الأدبية والفكرية، نظراً لما له من أسلوب معجز وقيمة سامية، فهو مصدراً أساسياً للثقافة على جميع الأصعدة.

فقد بهر العرب بأسلوبه الفني المعجز، وقيمة الفكرية والتشريعية السامية فلا بد من دارسته وحفظه والعناية به عناية لم يحظَ بها أثر فكري أو أدبي على الإطلاق.

للقران أثر واضح في الشعر العربي سواء في الماضي أو في الحاضر لأن فيه عظمة وفيها كثير من الدلالات والرموز الأخلاقية والاجتماعية والتربوية.

ونجد الرمز في العديد من السور القرآنية وهو أمر جيد وواضح لأن الرمز في القرآن هو سر من أسرار عظمة الخالق فقد تناول الشعراء هذا السر العظيم باحداث الأمور ومعانيها وصورها وقد تناولوا الإشارات والدلالات الموحية وأعطوها لمسات من التعبير الوجداني والأحاسيس والعبر التي لها واثر تأثير واضح في تجاربهم المختلفة.

وقد استوحوا الشعراء من القرآن الكريم الكثير من الرموز والدلالات منها ما يتلائم مع المواقف والظروف التي مرت بالشعراء وعبرت عن ما يدور في خلجات نفوس هؤلاء الشعراء من صور وأحاسيس صادقة ومعبرة تعكس

الحالة النفسية للشاعر وعن معاناة هؤلاء الشعراء، أي أنهم قد تأملوا في القرآن الكريم وتعمقوا في سوره وآياته ليس فقط مجرد تناول نصوصه بل لبيان رموزه ودلالاته الفكرية والعقلية.

الرمز القرآني وأثره في الشعر الحديث:

فالقرآن لغة: من قرأ، يقرأ قراءة وقرأنا، ويسمى القرآن بهذا الاسم لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والسور والآيات بعضها إلى بعض[١].

وهو الجمع وذلك لجمعه لأنواع العلوم والقصص والأخبار على أتم صوره، وهو أسم غير مشتق وغير مهموز، خاص بكلام الله، وقال الفراء (ت٢٠٧هـ) هو مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا ويشابه بعضها بعضا فهي قرائن[٢].

وقال أبو عبيدة (ت٢١٠هـ): سمي بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض، وقال الزجاج (ت٣١١هـ): هو وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء في الحوض أي جمعته.

ولشدّة ارتباط الشعر بالقرآن خاصاً وبالتراث عموماً، أن دارسي الأدب ونقّاده القدامى، لم يُعنوا بالأثر الذي تركه القرآن في الأدب العربي، ولم يعطوه جانباً مستقلاً من دراساتهم للثقافة الدينية التي اهتم الشعراء بها، وظهر عليهم الاهتمام بالموضوعات الدينية، مثل المدائح النبوية، وتسجيل المناسبات الدينية، فيحقق هذا الأمر أهدافه وذلك لإثبات الوقائع وربطها بالأسباب ووصف الظواهر وتعليلها ومحاولة إظهارها على الشعر العربي بصورة عامة وعلى الشعر الحديث بصورة خاصة والبحث عن بواعثها الخفية والظواهر القريبة والبعيدة منه، وبيان العبر المتفاعلة بينهما أي الترابط والانجذاب بين

القراء والشعر العربي .

ولعل التطور الذي طرأ على الحياة السياسية في العصر الحديث جعل فائدة الشعراء من القرآن الكريم وسيلة لمواجهة الحملات الاستعمارية التي استهدفت الموروث الأدبي استهدافاً واضحا، وان الصفات الإلهية هي من أكثر المعاني القرآنية تداولاً على السنة الشعراء والتي تتمثل بالأسماء الحسنى، كصفة العزيز التي ذكرها الشاعر، في قوله:

ضرعوا إلى الله العزيز وكبروا فإذا الرصاص جواب كل دعاء

وفي قوله:

وتوسلوا لله ربك ناصراً يا صاحب المعراج والإسراء

وبذلك يمكَن الشعراء من تحقيق الصدق الفني والعاطفي الواضح.

وان معاني القصص والعبر القرآنية في الشعر العربي الحديث، عديدة ومن أجمل ما فيها النماذج الشعرية التي تشير إلى ما قاله الزهاوي مستفيدا من مفردات ومعاني القرآن الكريم، إذ يقول:

إنما الناس ان نظرت إليهم آكل في الحياة أو مأكول

ما أراد القرآن الا هداهم وكذلك التوراة والإنجيل[٣]

فإن مفردات القرآن الكريم واضحة بصورة جلية في هذا الأبيات كالقرآن والتوراة والإنجيل.

ومن الشواهد الأخرى التي تبين فائدة الشعراء من معاني القرآن الكريم كقول الشاعر احمد الصافي النجفي[٤]:

الناس قد دخلوا إلى الدنيا معا فتفرقوا لكنائس وجوامع

النـــاس ماتـــت روحهـــم فتفرقـــوا شـيعا فهـل مـن يـوم حشـر جـامع

قد اقتبس الشاعر هذه المعاني المستوحاة من قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٥)، وقوله عزة وجل ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾(٦).

ولعل الذي دفع الشعراء إلى التركيز على هذا الجانب هو حاجة العصر الحديث إلى هذا العدل وذلك لأن الأمة المستضعفة التي شهدت الغزو الاستعماري والجور في الحكم الأجنبي المباشر فلابد من ذكر عدالة الله الذي يمهل ولا يهمل، وتوضيحها في الشعر وبيان مدى أثرها وتأثيرها بالقرآن الكريم على الشعر العربي.

ويمكن القول ان الرمز والرمزية في القرآن وهي تلك الرمزية العامة التي تحققت للأغراض الدينية والتربوية، وذلك من خلال الملامح الغوية والتصويرية وإلانسانية والمهمة والواقعية فيه. ومن مظاهر الرمز والرمزية في القرآن الكريم هو أساليب الإيجاز والمجاز بما فيه من تشبيه واستعارة وكناية.

ومن أنواع هذا الرمز هو الرمز اللغوي وهذا ما استفاد منه الشعراء، كقول الشاعر:

أَبَنْتَ لنا التنزيل حكماً وحكمةً وفرّقت بين النور والظلمات

وأيضا هناك الرمز الموضوعي، وهو يتناول الأعلام والشخصيات التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، وذلك من خلال سياق القصة القرآنية. فقد استخدم الشعراء هذه الأعلام في شعرهم، بحيث تحولت إلى دلالات رمزية في الشعر.

فمن خلال الكثير من المواضع في هذا الإطار قد تحدث الشاعر عن النبي موسى عليه السلام مشيراً إلى قصته مع آل إسرائيل وهو يرمز إليهم بعبادهم للعجل فلم يحصدوا من تلك العبادة إلا الخسارة والضلالة، وقد استطاع الشاعر أن يوظف ويستفاد من هذه العبرة التي قصد إليها القرآن الكريم كدلالة رمزية قائلاً:

بالمن والسلوى تودد راغباً ... موسى لمن مكروا بكل جفاء

فاستنكروا نعم الإله وطالبوا ... بالثوم أو بصل مع القثاء

واستبدلوا بالله عجلاً بعد ما ... انصرف النبي لربه بدعاء

فعبادة العجل تدل دلالة رمزية على الذل والهوان والخيبة، وقد استخدم الشاعر هذا الرمز ليتمكن من تحقيق الغاية الحقيقة من ذلك الأمر لأن أولئك القوم قد أضلوا حكام الأمة بأكاذيبهم وألاعيبهم وان ذكر أسماء الأنبياء وبالتحديد منهم من أصحاب القصص والعبر والمعجزات العظيمة، وان هذا الانسجام والترابط اللغوي والفكري الواضح والصريح يدخل في إطار الرمز الموضوعي، وان الشاعر استطاع توظيف هذه الأسماء التراثية توظيفاً رمزياً محكماً، لأن فيها رموز لا تفقد الشعر جماله، بل تضيف إليه جمالا وإبداعا وتخلق جوا شعري بديع يحتوي كل القيم الفنية التي تشير للقديم والجديد وللماضي والحاضر، وبهذا تتحقق عدة أشياء وأمور في مقدمتها توضيح الدلالات الفنية والإبداعية التي برزت فيها حرارة الإحساس والإدراك الفني ومما يرمز لتلك الدلالات من مضامين فكرية وذهنية وعقلية، وذلك باعتبار الجانب الفني واللغوي والبناء التركيبي الظاهر الذي يشير إلى الأفكار ذات ألأبعاد العميقة التي توضح تبين قيمة الإبداع والرقي، وتبرز من خلالها كل الطاقات الشعرية والفكرية والمضامين الإنسانية والابعاد المختلفة سلباً وإيجاباً.

فالرمز اذن هو تعبير غير مباشر يتجنب فيه الشاعر أو الأديب تسمية الأشياء بأسمائها، ويكتفي بذكر ما يوحي بها، ويستحضرها عبر أدوات لغوية وتصويرية تمتلكها اللغة على لسان الشاعر أو الأديب الموهوب.

وخلال ذلك يمكن القول ان العديد من الشعراء قد تزعموا هذا النوع من الرمز الذي عاش على أنقاض الماضي والتمسك ببيان الشعري القديم ومما جعل هذه الحركة الشعرية حركة تقليدية محافظة بسبب مجاراتها لطرائق التعبير عند الشعراء القدامى.

ومن الموضوعات التي نالت اهتماماً خاصاً لدى هؤلاء الشعراء الا وهي صفات الله تعالى، والإيمان به وبرسله وبملائكته، والإيمان بالغيب والقدر، والجنة والنار، والثواب والعقاب، ثم ذِكْر صفات المؤمنين وموضوع العبادة وصفات المنافقين والكافرين، كقول الشاعر أحمد شوقي(٧).

يتمشى القضاء خلف نواهيـ ـكَ حديد الأظفار يطلب صيد

فقد عاصر الشاعر أحمد شوقي فترة مهمَّة من فترات تطوُّر العالم الإسلامي، واندمج فيها بالإيجاب، وحاول أن يعبَّر عن همومه الوطنيَّة في إطار إسلامي خالص لأن صوت الشعائر الدينية لدى الشاعر أعلى الأصوات بحيث يذكر في اشعاره عن أهميَّة الصلاة، قائلاً:

خَفَافًا إلى الداعي سراعا كأنما من الحرب داعٍ للصلاة مثوب(٨)

فيقول في موضع آخر:

وصلِّ صلاة مَن يرجو ويخشى وَقَبْل الصَّوْمِ صُمْ عن كُلِّ فحشا(٩)

كما تحدَّث عن فريضة (الحجِّ)، يقول:

إلى عرفات الله يا خيرَ زائر عليك سلام الله في عرفاتِ

ويـــوم تُـــوَلِّي وُجهـــة البيـــت نـــاظرًا وســـيم مجـــالي البِشْـــرِ والقســـماتِ

علـــى كـــل أفْـــق بالحجـــاز ملائـــك تـــزف تحايـــا اللّٰه والبركـــات[١٠]

فللقرآن دقة خاصة في استعمال اللفظة ووضعها، واللفظة القرآنية مشعّة بأكثر من دلالة، وموحية بأكثر من معنى، وكله مقبول في الوجدان والعقل. والأساليب اللغوية القرآنية كأسلوب الدعاء والاستفهام والعرض والتمنّي والرجاء والشرط والقسم والنفي والتوكيد والتعجّب والمدح والذم هي أساليب بلاغية لها دلالاتها المهمة والتي لها بعد أدبي عميق.

فآيات القرآن الكريم أصبحت المصدر الأوَّل الذي يستنبط منه استشهاداته، فيقول مادحًا السلطان عبد الحميد:

وَإنَّ أَمـــيرَ المُـــؤمِنينَ لَوابِـــلٌ مِـنَ الغَـوثِ مُنـهَلٌّ عَلـى الخَلـقِ صَـيِّبُ

رأى الفتنـةَ الكـبرى فَـوالى انهمالَـه فَبـادَت وَكائـت جَمـرَةً تتلـهب

إلى مُلـكِ عُثمـانَ الَّـذي دونَ حَوضِـهِ بِنـاءُ العَـوالي المُشـمخر المُطَنَّـبُ

وقد استوحى الشاعر هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[١١].

وبهذا قد أصبح المصدر القرآني ينبوعًا فيَّاضًا يستمدُّ منه الشعراء ألفاظه، وصوره ومعانيه في جميع أغراضه، وقد أفاد الشعراء من الصورة القرآنية في شعرهم، بل صبحت المصادر الإسلاميَّة المختلفة كالحديث والتاريخ لهما الدور البارز في الشعر، بل الالتفاف حول المعاني الدينية الكلية، وصورها المختلفة منها الجنَّة والنار والبعث، وأنَّ النور مصدر الضياء في الدنيا والآخرة؛

لأنه حقيقة دينيَّة رُوحيَّة، وهذا الأمر ليس فقط على مستوى الصورة المفردة، حين تكون اللفظة بحدّ ذاتها موحية بصورة معناها، بل أيضا على مستوى الصورة الكلية، والصورة المنقولة، مثل قول الشاعر الرصافي:

تراهم سكارى في العذاب وما هُم سكارى، ولكنْ من عذاب مشدّدِ

وكذلك قد استفاد الشعراء من المَثَل القرآني، وهو من مظاهر الصور القرآنية، ومن المشاهد الطبيعة الواردة بكثرة في القرآن الكريم كما في قول الشاعر الرصافي وهو متأثراً بمشاهد يوم القيامة. فيذكر ما يوحي بها، ويستحضر ما فيها من عبر وذلك من خلال الأدوات الغوية والتصويرية التي تمتلكها اللغة على لسان الشاعر أو الأديب الموهوب.

ألله صاغكِ جنّتينِ لخلقه محفوفتين بأنْعُم لعيال[١٢]

فإن القرآن الكريم قد بهر العرب بأسلوبه الفني المعجز، وقيمه الفكرية، والتشريعية السامية، فاهتموا على مدارسته وحفظه والعناية به عناية لم يحظَ بها أي أثر فكري أو أدبي على الإطلاق إذ يقول الشاعر أحمد شوقي في موضوع القضاء والقدر:

يتمشى القضاء خلف نواهيكَ حديد الأظفار يطلب صيد

وعن صفات المؤمنين يتحدث الشاعر قائلاً:

ومن يتحلّ بثوب التقى يجد مخرجاً، وَيَنَلْ ما طلبْ

ويلقَ رضا الله عن جنده ويرزقْه من حيث لا يحتسب

فللغة القرآنية طبيعة وخصائص تميزها عن غيرها. ولها خاصية في استعمال اللفظة ووضعها في مكانها، واللفظة القرآنية لها أكثر من دلالة ورمز، وتوحي بأكثر من معنى، وهو مقبول ومرضي في الوجدان والعقل وهذه بحد

ذاتها معجزة ألاهية، وفي شعر العربي الحديث العديد من الشعراء نجد في اشعارهم الكثير من الألفاظ القرآنية مثل الهدى والإيمان والتقى، وما يقابلها من ألفاظ الضلالة والشرك والكفر، وغير ذلك.

وقد استفاد الشعراء من هذه الصورة القرآنية الموحية بالرمز والإبداع اللاهي في شعرهم، على مستوى اللفظ والصورة، حين تكون اللفظة بحدّ ذاتها موحية بصورة ذات معنى ومغزى، ويشير لذلك الشاعر الرصافي على مستوى الصورة الكلية، والصورة المنقولة، قائلاً:

تراهم سكارى في العذاب وما هُم سكارى، ولكنْ من عذاب مشدّدِ

وهذا له دلالة رمزية لأن الرمزية في القرآن هي تلك الرموز العامة التي تحقق الأغراض الدينية والتربوية، ويلاحظ ذلك من خلال الملامح الغوية والتصويرية وإلانسانية.

ومن أهم هذه المظاهر الرمزية في القرآن الكريم أساليب الإيجاز والمجاز بما فيه من تشبيه واستعارة وكناية، فقد تحولت إلى دلالات رمزية في الشعر وفي مختلف المواضع، وقد استفاد من ذلك العديد من الشعراء، كقول الشاعر:

أَبَنْتَ لنا التنزيل حكماً وحكمةً وفرّقت بين النور والظلمات

وهناك نوع من الرمز الا وهو الرمز الموضوعي، وهو يتناول الأعلام والشخصيات البارزة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، وذلك من خلال سياق القصص القرآنية. وقد استخدم الشعراء هذه الشخصيات في شعرهم، بحيث تحولت إلى دلالات رمزية في الشعر في العديد من المواضع.

إن هذا الاتجاه في الشعر العربي يقوم على محاكاة الأقدمين وبعث واحياء التراث الشعري القديم والشعر العباسي والشعر الأندلسي ليتجاوز ركود عصر الانحطاط ومخلفات ركود الشعر عن طريق العودة إلى الماضي الحافل

بالشعر المزدهر ويزيل الغبار لغرض الخروج من الأزمة الشعرية التي عاشها الشعر والشعراء في عصر النهضة.

فهؤلاء الشعراء الذي عاش على أنقاض الماضي والتمسك بالبيان الشعري القديم أدت إلى جعل هذه الحركة الشعرية في شعرهم حركة تقليدية محافظة بسبب مجاراتهم لمحاكاة الأقدمين وذلك من خلال التعبير عند الشعراء القدامى ولأن طبيعة الفترة التاريخية كانت تتطلب من الشعراء أن يعيد الاعتبارات الفكرية إلى ذاته، بسبب تشبعهم بالفكر الحر، الذي أثر على العقل العربي، في تلك الفترة من تاريخ الأمة العربية. وقد أتاح لهم ذلك التتبع أن يعبروا عن أنفسهم بوصفها قيم إنسانية لها وزنها وأهميتها، وأن يبتعدوا عن محاولة توكيد الذات بمحاكاة النماذج السابقة، ولكن الشعراء لم يذهبوا برسالتهم الشعرية إلى أبعد من ذلك إذا كانت القصيدة عندهم تعتمد على امتلاء الذاكرة والتقليد، فإن التيار الوجداني قد استخدم لغة أكثر سهولة ويسرا بعيدا كل البعد اللغة التي كانت تميل إلى رصانة اللفظ وجزالة الأسلوب وبداوة المعجم.

بينما اقترنت الصورة الشعرية لدى اغلب الشعراء الأدب الحديث بالذاكرة التراثية المستقلة عن التجربة الذاتية للقصيدة، وغالبا ما تأتي للتزيين والزخرفة ليس إلاّ.

وعلى رغم من ذلك كله فان له التأثير المباشر والفعال وبالتعمق في القرآن الكريم، وقراءة الحديث النبوي الشريف، والتجوال الدائم في الشعر العربي القديم وهذا ما نجده واضحا في اشعارهم.

فقد أصبح الشعر وسيلة لاكتشاف الإنسان والعالم، كما له فعالية جوهرية تتصل بوضع الإنسان ومستقبله، وبدأ الشاعر يحمل رؤيته للإنسان والحياة والكون والوجود والقيم والمعرفة. بل أصبح الشعر أداة لتفسير العالم وتغييره.

ولا يعرف الشاعر معنى الاستقرار فهو كثير التنقل والتجوال في ميادين المعرفة، وقد استفاد الشعر والشعراء من هذه المجموعة من الأساطير والرموز الدالة على البعث والنهضة واليقظة والتجدد، والتي استلهمها من القرآن الكريم ومن المعتقدات المسيحية ومن التراث العربي والإسلامي ومن الفكر الإنساني عامة.

وقد تجسد هذه الأساطير غالبا في صراع الخير والشر، وأفرزت هذه الأساطير الرمزية التي وظفها الشاعر في شعره واعتبرها منهجا نقديا وأدبيا وفلسفيا واسماه المنهج الأسطوري الذي ((يقدم به الشاعر مشاعره وأفكاره، ومجمل تجربته في صور رمزية، يتم بواسطتها التواصل لا عن طريق مخاطبة الفكر، كما تفعل الفلسفة والمنطق، بل عن طريق التغلغل في اللاشعور، حيث تكمن رواسب المعتقدات والأفكار المشتركة)).

وقد تناول بدر شاكر السياب في الكثير من قصائده معاني الموت والبعث، وعبر عن طبيعة الفداء في الموت، إذ يعتقد بأن الخلاص لا يكون إلا بالموت، وإلا بمزيد من الأموات والضحايا ولعلّ إنسانية السيّاب ومعاناته لقتل الإنسان أخاه في مختلف بقاع العالم على مدى التاريخ بشتّى الصور، هو الذي ساقه إلى أن يرمز إلى الشرّ بقابيل ويتّخذه رمزاً تراثياً لمعاناة الإنسانية[١٣]، وقد استخدم السياب رمزا أسطوريا للتعبير عن فكرة الخلاص وهو رمز المسيح كما في قصيدته (المسيح بعد الصلب)، وقصيدة (مدينة السندباد) و((أنشودة المطر)).

وانطلاقا من هذه الصورة البشعة يقول في قصيدته (مدينة السندباد) فنظراً إلى قصّة (قابيل)، فالقاتل يعود لكي يقتل هذه المرّة كلّ شيء[١٤]، الموت في البيوت يُولد يُولد قابيل، لكي ينتزع الحياة، من رحم الأرض ومن منابع المياه[١٥].

وهكذا أصبح قابيل رمزاً للظلم والقتل والغدر وكان هابيل رمزاً للحق والعدل ورمزاً للمظلوم والمضطهد، فأستخدم شخصية قابيل دائماً رمزاً للجاني، بينما أستعمل هابيل رمزاً للضحية وانطلاقا من هذه الفكرة، ومجاراة للأوضاع السياسية المتوترة في الأراضي المحتلة، فاللاجئ الفلسطيني هو هابيل، والحياة الذين شرّدوه من أرضه هم قابيل(١٦).

الإشارات والملامح التي يستدعيها السيّاب فالشاعر الحديث شاعراً يجمع بين هموم الذات وهموم الجماعة، وقد أصبح وعي الشاعر بالذات وبالزمن وبالكون مرتبطا بوعيه بالجماعة، ومتضمنا له.

في هذه القصّة إشارات قرآنية عميقة ترمز لشخصية موسى عليه السلام في شعر السيّاب فقد أستعار الشاعر بدر شاكر السيّاب من القرآن الكريم قصّة النبي موسى عليه السلام وانشقاق البحر له ليعبّر عن حنينه إلى بلده العراق وهو غريب في الكويت متمنياً أن تطوي له لجّة البحر كي يصل بأقصى سرعة إلى دياره(١٧).

هو البحر.... سوراً من الماء قام

بوجهي... بوجه الحنين

لو أني موسى.... رفعت لديه عصاي

وصحت به... كن معيني على الظالمين

لو أني موسى.... رفعت بوجه الخضم اليدين

صرخت به: أنشق لي لجتين

لأرجع عبر صغاري... وداري

لأجمل ما تقع العين يوماً عليه(١٨)

انطلاقا من هذه الفكرة وهذه التجربة ومجاراة مع المفاهيم القرآنية أستخدم السياب رمز أيوب بملامحه القرآنية منها الصبر على الشدة والرضا بقضاء الله[١٩].

فهو يحمد الله على كلّ ما أصابه من بلاء ويعتبر هذه المصائب هدايا الحبيب (الله) فيتقبّلها ويضمّها إلى صدره فيقول:

لـــك الحمـــد إن الرزايـــا عطـــاء

وإن المصـــيبات بعـــض الكـــرم

ألم تعطـــني أنـــت هـــذا الظـــلام

وأعطيـــتني أنـــت هـــذا الســـحر؟

فهـــل تشـــكر الأرض قطـــر المطـــر

وتتسم أشعار الشاعر عبد الوهاب البياتي بجدلية الأمل واليأس كما يظهر ذلك جليا في ديوانه ((الذي يأتي ولاياتي)). ويلاحظ الدارس أن هناك ثلاث منحنيات في جدلية الأمل واليأس في أشعار عبد الوهاب البياتي، وما كان لشيء من ذلك أن يحدث لولا وعي الشاعر في إدراكه للمعجزة القرآن الكريم، وفهمه للتحدي الذي يهدد حاضره ومستقبله، بالقدر الذي يهدد وجوده القومي. الأمر الذي جعل موقف الشاعر من الذات، ومن الكون، ومن الزمن ومن الجماعة، موقفا موحدا، تمليه رغبته في الحياة والتجدد والانتصار على كل التحديات، التي يرمز إليها برمز واحد، ذي طابع شمولي، هو رمز الموت الذي يعني موت الذات وموت الزمن أي في الماضي بكل أمجاده والحاضر بكل تطلعاته إذن فقد حظي القرآن الكريم بنصيب وافر من الدراسات الأدبية والفكرية، نظراً لما له من أسلوب معجز وقيمة سامية، فصار مصدراً أساسياً للثقافة على جميع الأصعدة، وكان للعربية حظ وافر

من أساليبه البلاغية الرفيعة شعراً ونثراً، ولعل التطور الذي طرأ على الحياة السياسية في العصر الحديث جعل إفادة الشعراء من القرآن الكريم وسيلة لمواجهة الحملات الاستعمارية التي استهدفت الموروث والمعتقد استهدافاً غير خاف على فطن.

ولإبراز تأثير القرآن على الثقافات المعاصرة وخاصة الشعر ولعل الصفات الإلهية هي أكثر المعاني القرآنية تداولاً على ألسنة الشعراء والمتمثلة بالأسماء الحسنى، كصفة العزيز التي ذكرها الشاعر في قوله:

ضـــرعوا إلى الله العزيـــز وكـــبروا فـإذا الرصـاص جـواب كـل دعـاء[٢٠]

وبذلك تمكن الشاعر من تحقيق الصدق الفني والعاطفي، كما يذكر أيضاً صفة الناصر في قوله:

وتوســـــلوا لله ربـــــك ناصـــــراً يـــا صـــاحب المعـــراج والإســـراء[٢١]

وكأن الشاعر في حشده لهذه الصفات يستنجد بالقوة الإلهية الغالبة القاهرة التي لا معقب لها ويستغيث كي تردع الظالم والمستعمر الغاشم وتنصر المستضعف المظلوم وهذه الفكرة مستوحاة من القرآن الكريم كدلالة رمزية واضحة ومن جهة أخرى يحاول الشاعر ان يجعل من الشعب قوة عظمى إذا تمسكت بالعقيدة الإسلامية وتعاليمها التي دكت حصون البغي والشرك، وهذه العقيدة مستمدة من القرآن الكريم وعنها يقول الشاعر:

وإذا الإرادة بالعقيـــــدة كللـــــت دكـــت حصـــون البغـــي والأرزاء

وبذلك تكون إرادة الشعب المجاهد من إرادة الله، ويصبح قادراً على إنقاذ نفسه ودحر المعتدين.

ويضاف إلى ذلك الأثر ذكر أسماء الأنبياء وبالتحديد أولي العزم منهم،

ولعل هذا الانسجام يدخل في إطار الرمز الموضوعي، وذلك من خلال تأكيد ذكرهم في القصص القرآنية، حيث استطاع الشاعر أن يوظف هذه الأسماء التراثية توظيفاً رمزياً بارعاً، فهي كما يقول الدكتور شوقي ضيف: (رموز لا تفقد الشعر جماله، بل تضيف إليه جمالاً على جمال، إذ تعين على خلق جو شعري بديع فيه قديم وجديد وماض وحاضر)[٢٢] إن تأكيد الشعراء على أسماء الأعلام التي رسخت في النفس منذ قرون وما رافقتها من مواقف وصفات إنسانية التي تثير للمتلقي خلق رموزاً تحقق كثافة لغوية تغنيه عن الدخول في جزئيات الأمور.

وفي هذا الإطار ذكر من الأنبياء موسى عليه السلام مشيراً إلى قصته مع آل إسرائيل بدلالة رمزية لعبادة العجل لأنهم عدلوا عن جادة نبيهم أثر غيابه عنهم، فلم يحصدوا إلا الخسران والضلال، وهنا استطاع الشاعر أن يفيد من هذه العبرة التي اقتدى بها وأشار إليها بالقرآن الكريم قائلاً:

بالمن والسلوى تودد راغباً ... موسى لمن مكروا بكل جفاء

فاستنكروا نعم الإله وطالبوا ... بالثوم أو بصل مع القثاء

واستبدلوا بالله عجلاً بعد ما ... انصرف النبي لربه بدعاء

فعبدت العجل أصبحوا رمزاً للذل والهوان والخيبة، ومن خلال استعارة الشاعر لهذا الرمز تمكن من تحقيق الغاية المبتغاة منه، فأولئك القوم قد أضلوا حكام الأمة بأكاذيبهم المستمرة من قبل.

كما ذكر الشاعر من الرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، مستشهداً بقصته في الإسراء والمعراج، فكان يناديه بأحد المعاني التي أصبحت رمزاً موضوعياً وذلك من خلال المقولة له (يا صاحب الإسراء) وقد حرص الشعراء على تأكيد النداء بتكراره عدة مرات، ولعل نداء من رحل أكثر أنواع النداء تأثيراً في النفس،

فما بالك إذا طلب منه أن ينظر إلى الأقصى، فانه على الأغلب يرثي الأشياء التي انتشرت في كل مكان قائلاً:

يـا صـاحب المعـراج هـل مـن نظـرة للمسـجد الأقصـى وذاك رجـائي

لقد تأثر الشاعر بقصة الإسراء والمعراج كما تأثر من قبل كبار الأدباء، وفي قوله:

إنمـا النـاس لأن نظـرت إلـيهم آكـل في الحيـاة أو مـأكول

مـا أراد القـرآن الا هداهـم وكـذلك التـوراة والإنجيـل

فمفـردات القـرآن الكـريم في البيـت الثـاني واضـحة (القـرآن، التـوراة، الإنجيل) وذلك من خلال قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٢٣] و﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[٢٤].

ومن الشواهد الأخرى التي استفادة من الشعراء من خلال معاني القرآن وهذا ما قاله الشاعر احمد الصافي النجفي:

النـاس قـد دخلـوا إلى الـدنيا معـا فتفرقـوا لكنـائس وجوامـع

النـاس ماتـت روحهـم فتفرقـوا شـيعا فهـل مـن يـوم حشـر جـامع[٢٥]

فقد أخذ الشاعر المعاني من قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٢٦] و﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾[٢٧].

فلّغة القرآنية طبيعة وخصائص تميزها عن غيرها. وله خاصيه في استعمال اللفظة ووضعها في مكانها، واللفظة القرآنية لها أكثر من دلالة، وتوحي بأكثر من معنى، وهو مقبول ومرضي في الوجدان والعقل،وفي شعر العديد من الشعراء نجد الكثير من الألفاظ القرآنية مثل الهدى والإيمان والتقى،

وما يقابلها من ألفاظ الضلالة والشرك والكفر.

الخاتمة:

طبيعة الفترة التاريخية كانت تتطلب من الشعراء أن يعيد الاعتبارات الفكرية إلى ذاته، بسبب تشبعهم بالفكر الحر، الذي أثر على العقل العربي، في تلك الفترة من تاريخ الأمة العربية.

ولقد أتاح لهم ذلك التتبع أن يعبروا عن أنفسهم بوصفها قيما إنسانية لها وزنها، وأن يبتعدوا عن محاولة توكيد الذات بمحاكاة النماذج السابقة، ولكن الشعراء لم يذهبوا برسالتهم الشعرية إلى أبعد من ذلك إذا كانت القصيد عندهم تعتمد على امتلاء الذاكرة وتقليد الانموذج، فإن التيار الوجداني قد استخدم لغة أكثر سهولة ويسرا من لغة القصيدة الإحيائية التي كانت تميل إلى رصانة اللفظ وجزالة الأسلوب وبداوة المعجم. بل تستعمل القصيدة الوجدانية لغة الحديث المألوف ولغة الشارع.

كذلك استطاع الشاعر أن يوظف هذه الأسماء التراثية توظيفاً رمزياً بارعاً، فهي كما يقول الدكتور شوقي ضيف: (رموز لا تفقد الشعر جماله، بل تضيف إليه جمالاً على جمال، إذ تعين على خلق جو شعري بديع فيه قديم وجديد وماض وحاضر) إن تأكيد الشعراء على أسماء الأعلام التي ترسخت في النفس منذ قرون وما رافقتها من مواقف وصفات إنسانية التي تثير للمتلقي خلق رموزاً تحقق كثافة لغوية تغنيه عن الدخول في جزئيات الأمور.

هذه الأساطير الرمزية التي وظفها الشاعر في شعره واعتبرها منهجا نقديا وأدبيا وفلسفيا واسما المنهج الأسطوري الذي ((يقدم به الشاعر مشاعره وأفكاره، ومجمل تجربته في صور رمزية، يتم بواسطتها التواصل، لا عن طريق مخاطبة الفكر، كما تفعل الفلسفة والمنطق، بل عن طريق التغلغل إلى اللاشعور، حيث تكمن رواسب المعتقدات والأفكار المشتركة)).

هوامش البحث

(١) ينظر :لسان العرب: مادة قرأ، ابن منظور،المجلد الخامس،دار المعارف.
(٢) معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، ٥٤.
(٣) ديوان الزهاوي:٥٥. وينظر: البغداديون أخبارهم ومجالسهم،إبراهيم عبد الغني ألدروبي،١٨٠.
(٤) شاعرية الصافي : خضر عباس ألصالحي:٨٧.
(٥) سورة الروم ٣٢.
(٦) سورة الإنعام ٢٢.
(٧) إسلاميات أحمد شوقي، مجلة الأدب الإسلامي، مصطفى عبد الغني: عدد ١٤، بتاريخ ١٤١٧هـ.
(٨) المصدر نفسه: ٥٥.
(٩) المصدر نفسه: ٧٨.
(١٠) إسلاميات أحمد شوقي دراسة نقدية: سعاد عبد الوهاب عبد الكريم: ٢٢٨-٢٣٤.
(١١) سورة البقرة: ١٩.
(١٢) ديوان الرصافي: ٤٤.
(١٣) ينظر: الرؤيا الإستشراقية التاريخية في الشعر العربي المعاصر، ٦، كاظم الأوسي.
(١٤) الأسطورة في شعر السيّاب، ٦٠، علي عبد الرضا، ينظر: لغة الشعر ((قراءة في الشعر العربي الحديث))، ٣٢٤ رجاء عيد.
(١٥) ديوان بدر شاكر السياب الاعمال الشعرية الكاملة، ج١، ٤٧٠.
(١٦) ينظر: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ١٠١،علي عشري زايد. ينظر: بدر شاكر السياب والحركة الشعريّة الجديدة في العراق، محمود العبطة.
(١٧) ينظر: شعر بدر شاكر السيّاب؛ دراسة فنية وفكرية، حسن توفيق ٢٠١.
(١٨) المجموعة الشعرية الكاملة، ج ١، ٤٧٤ بدر شاكر السيّاب.
(١٩) ينظر: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص ٩١. علي عشري زايد.
(٢٠) عبد الوهاب ألبياتي والشعر العراقي الحديث إحسان عباس: ٥٠، دار بيروت لبنان، ط ١، ١٩٥٥.
(٢١) الديوان: ٤.
(٢٢) أعلام الشعر العربي الحديث محمد مندور: ٧٩.
(٢٣) سورة:الإسراء ٩.
(٢٤) سورة: ال عمران ٤.
(٢٥) ديوان احمد الصافي ألنجفي: ٤٠.
(٢٦) سورة:الروم ٣٢.
(٢٧) سورة: الإنعام ٢٢.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- لسان العرب : مادة قرأ، ابن منظور، المجلد الخامس،دار المعارف.
- الأسطورة في شعر السيّاب، علي عبد الرضا،وزارة الثقافة والفنون،١٩٧٨ .
- إسلاميات أحمد شوقي دراسة نقدية :سعاد عبد الوهاب عبد الكريم
- إسلاميات أحمد شوقي، مجلة الأدب الإسلامي، مصطفى عبد الغني: عدد ١٤، بتاريخ ١٤١٧هـ.
- أعلام الشعر العربي الحديث :محمد مندور: ط١، دار المعارف.
- بدر شاكر السياب والحركة الشعريّة الجديدة في العراق، محمود العبطة - بغداد ١٩٦٥.
- البغداديون أخبارهم ومجالسهم،إبراهيم عبد الغني ألدروبي، بغداد - ١٩٥٨م -.
- ديوان ألبياتي: عبد الوهاب ألبياتي، طبعة الأولى، دار المعارف، ١٩٩٠.
- ديوان الرصافي: معروف الرصافي، الطبعة الأولى، ١٩٥٩.
- ديوان الزهاوي: شرح وتقديم: أنطوان القول، دار العودة، ١٩٧٢
- ديوان بدر شاكر السياب الإعمال الشعرية الكاملة، ج ١، دراسة وتقديم: سمير بسيوني، مكتبة جزيرة الورد - القاهرة ٢٠٠٩.
- الرؤيا الإستشراقية التاريخية في الشعر العربي المعاصر، كاظم الأوسي.
- شاعرية الصافي : خضر عباس ألصالحي - مطبعة المعارف - بغداد ١٩٧٠
- شعر بدر شاكر السيّاب؛ دراسة فنية وفكرية، حسن توفيق، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن – عمان عبد الوهاب ألبياتي والشعر العراقي الحديث إحسان عباس: دار بيروت لبنان، ط ١، ١٩٥٥.
- لغة الشعر ((قراءة في الشعر العربي الحديث)): رجاء عيد، المجلد الأول، منشأة المعارف،٢٠٠٣.
- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى الفراء ت ٢٠٧، تحقيق: احمد يوسف النجاتي، عبد الفتاح الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة الأولى.